لمثيبك عليها ثوابًا لا يحيط به الوصف و ﴿لرادك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد رده يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معادًا له شأن ومرجعًا له اعتداد لغلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهرًا ظافرًا وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة قال: نعم فأوحاها إليه.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم﴾ بما قبله! **قُلْتُ:** لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني: نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ماجاء الاستثناء فيه **قُلْتُ:** هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾.

وقرئ ﴿يصدنك﴾ من أصدّه بمعنى صدّه وهي في لغة كلب وقال:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهمو صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذٍ وليلتئذٍ ويومئذٍ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق نكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى، وكذب به ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا إن كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العنكبوت مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيدًا وظننت الفرس لم يكن شيئًا حتى تقول: حسبت زيدًا عالمًا، وظننت الفرس جوادًا لأنّ قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتًا عندك على وجه الظنّ لا اليقين، فلم تجد بدًا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قُلْتَ: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! **قُلْتُ:** هو في قوله: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله، فتركته جزر السباع ينشنه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام.

فإن قُلْتَ: أن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ **قُلْتُ:** كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديبًا تعليلين وتقول أيضًا: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرًا.

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾.

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿لتبلون في

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/36.

أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1] وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله وقيل: في ناس أسلموا بمكة فكتب إليهم المهاجرون ﴿ولا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا﴾ فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم فلما نزلت كتبوا بها إليهم فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي، فقال رسول الله ﷺ: سيد الشهداء مهجع وهو أوّل من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمّة فجزع عليه أبواه وامرأته[2] ﴿ولقد فتنا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه يعني: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم، أو ما هو أشدّ منه فصبروا كما قال: وكأين من نبيّ قتل معه ربيون كثير فما وهنوا الآية وعن النبي ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه[3] ﴿فليعلمنّ الله﴾ بالامتحان ﴿الذين صدقوا﴾ في الإيمان ﴿وليعلمنّ الكاذبين﴾ فيه.

فإن قُلْتَ: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ **قُلْتُ:** لم يزل يعلمه معدومًا ولا يعلمه موجودًا إلا إذا وجد[4] والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب، ويجوز أن يكون وعدًا ووعيدًا كأنه قال: وليثيبنّ الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين وقرأ علي رضي الله عنه والزهري، وليعملنّ من الإعلام أي: وليعرفنهم الله الناس من هم أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها وكحل العيون وزرقتها.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾.

﴿أن يسبقونا﴾ أن يفوتونا يعني: أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة وهم لم يطمعوا في الفوت ولم يحدّثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدّر ذلك ويطمع فيه ونظيره وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون.

فإن قُلْتَ: أين مفعولا حسب؟ **قُلْتُ:** اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين كقوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أنّ هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل لأنّ ذاك يقدّر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظنّ أنه لا يجازي بمساويه ﴿ساء ما يحكمون﴾ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذمّ.

مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾.

لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فإمّا أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ من كان يأمل تلك الحال وأن يلقى فيها الكرامة من الله، والبشر ﴿فإنّ أجل الله﴾ وهو الموت ﴿لآت﴾ لا محالة فليبادر العمل الصالح الذي يصدّق رجاءه ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى ﴿وهو السميع العليم﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه فهو حقيق بالتقوى والخشية وقيل: يرجو يخاف من قول الهذلي في صفة عسال، إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها.

فإن قُلْتَ: فإنّ أجل الله لآت كيف وقع جوابًا للشرط؟ **قُلْتُ:** إذا علم أنّ لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الآجل المضروب للموت فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإنّ لقاء الله لآت لأنّ الأجل واقع فيه اللقاء كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك، فإنّ يوم الجمعة قريب إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾.

﴿ومن جاهد﴾ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه ﴿فإنما يجاهد﴾ لها لأنّ منفعة ذلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهى رحمة لعباده وهو الغنيّ عنهم وعن طاعتهم.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 186.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/39، وحديث ابن أبي شيبة 14/77، كتاب: الأوائل باب: أول ما فعل الخ...

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3612).

(4) قال أحمد: فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم = بالكائن غير العلم بأن سيكون، والحق أنّ علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم والله أعلم.

إمّا أن يريد قومًا مسلمين صالحين قد أساؤا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم أي: يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون اي: أحسن جزاء أعمالهم وإمّا قومًا مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عزّ وجلّ يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدّم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام[1].

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾.

وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيدًا بأن يفعل خيرًا كما تقول: أمرته بأن يفعل ومنه بيت الإصلاح:

ونبيانية وصت بنيها بأن كنب القراطف والقروف

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها ومنه قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾[2] أي: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ وصيناه بإيتاء والديه حسنًا أو بإيلاء والديه حسنًا أي: فعلا ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسنًا﴾ وقرئ حسنًا وإحسانًا، ويجوز أن تجعل حسنًا من باب قولك: زيدًا بإضمار اضرب إذا رأيته متهيا للضرب فتصبه بإضمار أوّلهما أو افعل بهما لأنّ التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا: أولهما معروفًا و﴿فلا تطعهما﴾ في الشرك إذا حملاك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه، وابتدأ حسنًا حسن الوقف وعلى التفسير الأوّل لا بدّ من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي: لا علم لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئًا لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكر على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال إليّ: مرجع من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم، وفيه شيئان أحدهما أنّ الجزاء إليّ فلا تحدّث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برّك ومعروفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي والثاني التحذير من متابعتهما على الشرك والحثّ على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمّه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضحّ والريح وإنّ الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحد ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان[3] وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمّه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالا له: إنّ من دين محمد صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتًا حتى تراك وهي أشدّ حبًا لك منا فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه، فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال له: عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إنّ ناقتي قد كلت فاحملني معك قال: نعم، فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشدّاه وثاقا وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمّه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت[4].

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾.

﴿في الصالحين﴾ في جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني أنبياء الله قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[5] وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[6] أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾.

---

(1) قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر، إلا بالتوبة، وأطلق تكفير الصغائر، وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات، وكلا الأصلين قدري مجتنب والله الموفق.

(2) سورة البقرة، الآية: 132.

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، والقصة عند مسلم، كتاب: الفضائل 3/40 وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 193 ـ 194.

(4) راجع الحديث 381، سورة النساء.

(5) سورة النمل، الآية: 19.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 27.

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾[1] الآية هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفًا. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: **﴿إنا كنا معكم﴾** أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم **﴿بما في صدور العالمين﴾** من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ ليقولنّ بفتح اللام.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾.

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم أمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع وهذا قول: صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم، ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه: إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا وإثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامّة وجهلتهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال: وما هي قال: شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمن [2].

فإن قُلْتَ: كيف سماهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئًا علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذبًا لا حين ضمن ولا حين عجز؛ لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه! **قُلْتُ:** شبّه الله حالهم حيث علم أنّ ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه ويجوز أن يريد أنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف.

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾.

﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال أنفسهم **﴿وأثقالاً﴾** يعني: أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سببًا في ضلالهم **﴿وليسئلن﴾** سؤال تقريع **﴿عما كانوا يفترون﴾** أي: يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ من خطياتهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾.

كان عمر نوح عليه السلام ألفًا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفًا وأربعمائة سنة.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة! **قُلْتُ:** ما أورده الله أحكم لأنه لو قيل: كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك[3] وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظًا وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي: أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمّته، وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتًا له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع، وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره.

فإن قُلْتَ: فلم جاء المميز أوّلاً بالسنة وثانيًا بالعام؟ **قُلْتُ:** لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم، أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك و **﴿الطوفان﴾** ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج، وغم طوفان الظلام الأثأبا.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿أصحاب السفينة﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفسًا

---

(1) سورة النساء، الآية: 69.

(2) قال أحمد: عمرو بن عبيد أوّل القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست إلا آية مطابقة للحكاية، ولكن الزمخشري يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أنّ الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ نكتة حسنة يستدل به على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر، فإنّ من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية؛ لأن الله تعالى أردف قولهم ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله: ﴿إنهم لكاذبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الإخبار.

(3) قال أحمد: لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص تحريراً للعدد فلا يحتمل المبالغة؛ لأنها لا يجوز معها العدد. عاد كلامه قال: وفيه نكتة أخرى، وهي: أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح، وكابده من طول المصابرة تسلية له عليه السلام، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين، فذكر في الأوّل السنة، وفي الثاني العام تجنباً للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم. قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح عليه السلام سام وحام ويافث ونساؤهم وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقد روي عن النبيّ ﷺ كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة والضمير في ﴿وجعلناها﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة، نصب.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وإبراهيم﴾ بإضمار انكر وأبدل عنه ﴿إذ﴾ بدل الاشتمال لأنّ الأحيان تشتمل؛ على ما فيها أو هو معطوف على نوحا وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغًا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء علمتم أنه خير لكم.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿تخلقون﴾ من خلق بمعنى التكثير في خلق وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرص.

وقرئ: ﴿إفكًا﴾ فيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما أن يكون صفة على فعل أي: خلقًا إفكًا أي ذا إفك وباطل واختفلاهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه أو سمى الأصنام ﴿إفكًا﴾ عملهم ولها ونحتهم خلقًا للإفك.

فإن قُلْتَ: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قُلْتُ: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره ﴿إليه ترجعون﴾.

وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾.

وقرئ بفتح التاء فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكذبونني فلا تضرونني بتكذيبهم فإنّ الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حلّ بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذبًا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه: وأن تكون آياتا وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أوّل قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قُلْتَ: إذا كانت من قول إبراهيم: فما المراد بالأمم قبله! قُلْتُ: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمّة في معنى أمم جمة مكذبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكنيب.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿قل سيروا في الأرض﴾! قُلْتُ: هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكي رسولنا ﷺ كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن.

فإن قُلْتَ: فإذا كانت خطابًا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة، أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله قُلْتُ: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له ومتفرجًا بأنّ أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله: ﴿وإن تكنبوا﴾ على معنى أنكم يا معشر قريش إن تكنبوا محمدًا فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمّة نبيها لأن قوله: ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لا بد من تناوله لأمّة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أنيالها وتوابعها لكونها ناطقة بالتوحيد دلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾.

قرئ يروا بالياء والتاء ﴿ويبدىء﴾ ويبدأ وقوله: ﴿ثم يعيده﴾ ليس بمعطوف على يبدئ وليست الروّية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى: ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾[1] على البدء دون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوثر فلانًا وأستخلفه على من أخلفه[2].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: ﴿أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ أنه معطوف، وصحح العطف، ولن كانوا ينكرون الإعادة؛ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداءة لدخلت في الرؤية= = الماضية، وهي لم تقع بعد ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي ولن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعوملت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح والله أعلم.

فإن **قُلْتَ**: هو معطوف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو؟ **قُلْتُ**: هو جملة قوله: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق﴾، وكذلك وأستخلفه معطوف على جملة قوله مازلت أوثر فلانًا ﴿ذلك﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: وهو أهون عليه من معنى يعيد دل بقوله:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿النشاة الآخرة﴾ على انهما نشأتان، وإن كل واحد منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، وقرئ **﴿النشاءة﴾** والنشاء كالرأفة والرآفة.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾[1] بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ **قُلْتُ**: الكلام معهم كان واقعًا في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى[2] هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه **﴿ويرحم من يشاء﴾** رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ومن المعصوم والتائب **﴿تقلبون﴾** تردون وترجعون.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه **﴿في الأرض﴾** الفسيحة **﴿ولا في السماء﴾** التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا﴾[3] وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه:

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

ويحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفما هبطم في مهاوي الأرض وأعماقها أو علوتم في البروج والقلاع الذاهب في السماء كقوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[4] أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿بآيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث **﴿يئسوا من رحمتي﴾** وعيد أي ييأسون يوم القيامة كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾[5]. أو هو وصف لحالهم لأنّ المؤمن إنما يكون راجيًا خاشيًا فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة وعن قتادة رضي الله عنه أنّ الله ذم قومًا هانوا عليه فقال: **﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾**، وقال: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن أن يكون راجيًا لله عز وجل خائفًا.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قرئ **﴿جواب قومه﴾** بالنصب والرفع **﴿قالوا﴾** قال: بعضهم لبعض، أو قاله: واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعًا في حكم القائلين، وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار نعني: يوم ألقى إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرّها.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين على التعليل أي: لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم وأن يكون مفعولاً ثانيًا كقوله: ﴿اتخذ إلهه هواه﴾[6] أي: اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودّة بينكم بمعنى مودودة بينكم كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله﴾[7] وفي الرفع وجهان أن يكون خبرًا لأنّ على أن ما موصولة وأن يكون خبر

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: والأصل الإظهار، ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية والله أعلم.

(3) سورة الرحمٰن، الآية: 33.

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة الروم، الآية: 12.

(6) سورة الفرقان، الآية: 43.

(7) سورة البقرة، الآية: 165.

مبتدأ محذوف والمعنى: أنّ الأوثان مودّة بينكم أي: موبودة أو سبب مودّة وعن عاصم مودّة بينكم بفتح بينكم مع الإضافة، كما قرئ لقد تقطع بينكم ففتح وهو فاعل وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أوثانًا إنما مودّة بينكم في الحياة الدنيا أي: إنما تتوادون عليها أو توبونها في الحياة الدنيا ﴿ثم يوم القيامة﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي يتلاعن العبدة ويتلاعن العبدة، والأصنام كقوله تعالى: ﴿ويكونون عليهم ضدًا﴾[1].

۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾.

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهم السلام وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وقال﴾ يعني: إبراهيم ﴿إني مهاجر﴾ من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته لوط وامرأته سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إلى ربي﴾ إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إنه هو العزيز﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿الحكيم﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿أجره﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة وأن أهل الملل كلهم يتولونه.

فإن قُلْتَ: ما بال إسمعيل عليه السلام لم ينكر ونلك إسحق وعقبة! **قُلْتُ**: قد دلّ عليه في قوله: ﴿وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو قدره.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالكتاب! **قُلْتُ**: قصد به جنس الكتاب حتى نخل تحته ما نزل على نريته من الكتب الأربعة التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿ولوطًا﴾ معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه و﴿الفاحشة﴾ الفعلة البالغة في القبح و﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ جملة مستانفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلاً قال: لم كانت فاحشة، فقيل له لأنّ أحدًا قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازًا منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم قالوا: لم ينزل نكر على نكر قبل قوم لوط قط. وقرئ ﴿إنكم﴾ بغير استفهام في الأوّل دون الثاني قال: أبو عبيد وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾.

وقطع السبيل عمل قطاع الطريق من قتل الانفس وأخذ الأموال وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة وعن الحسن قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث و﴿المنكر﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الخذف بالحصي والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الأزرار والسباب والفحش في المزاح، وعن عائشة رضي الله عنها كانوا يتحابقون وقيل: السخرية بمن مرّ بهم وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل وكل معصية، فإظهارها اقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياة فلا غيبة له ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق ناديًا ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدناه من نزول العذاب.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾.

كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعًا وكرهًا ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾[2] زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون، فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾.

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد والنافلة هما إسحق ويعقوب، وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى لاستقبال القرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه: أن الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وألوان معاصيهم.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿إن فيها لوطًا﴾ ليس إخبارًا لهم بكونه فيها وإنما هو جدال في شانه لانهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم، وأراد بالجدال إظهار الشفقة عليهم وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه والتشمر في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسه أذى، أو يلحقه ضرر قال: قتادة لا يرى المؤمن الا يحوط المؤمن الا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾

(1) سورة مريم، الآية: 82.

(2) سورة محمد، الآية: 1.

يعنون نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحال قومه وامتيازه منهم الامتياز البين وأنه لا يستأهل ما يستأهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب، وقرئ لننجينّه بالتشديد والتخفيف وكذلك منجوك ﴿أن﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كانهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه.

وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿وضاق بهم ذرعًا﴾ وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي: طاقته وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقًا له، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾.

الرجز والرجس العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿منزلون﴾ مخففًا ومشددًا.

وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿منها﴾ من القرية ﴿آية بينة﴾ هي آثار منازلهم الخربة وقيل: بقية الحجارة وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو ببينة.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿وارجوا﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة فأقيم المسبب مقام السبب أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوّغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾.

و﴿الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة وعن الضحاك صيحة جبريل عليه السلام لأنّ القلوب رجفت لها ﴿في دارهم﴾ في بلدهم وأرضهم أو في ديارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يلبس ﴿جاثمين﴾ باركين على الركب ميتين.

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿وعادًا﴾ منصوب بإضمار أهلكنا لأنّ قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾[1] يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك ﴿وقد تبين لكم﴾ ذلك يعني: ما وصفه من إهلاكهم ﴿من﴾ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وكانوا مستبصرين﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ولكنهم لم يفعلوا، أو كانوا متبينين أنّ العذاب نازل بهم لأنّ الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿سابقين﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾.

الحاصب لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة لمدين وثمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون، الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمدًا في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوّة وهو نسج العنكبوت ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ **قُلْتُ:** معناه: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ووجه آخر وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صحّ أنّ أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أنّ دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: ﴿وإنّ أوهن﴾ ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتًا بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا بآجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أنّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتًا بيتًا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينًا

(1) سورة الأعراف، الآية: 91.

دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾.

قرئ: ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئًا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وتدبير. كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال:

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي: لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصوّرها للأفهام كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»[1].

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿بالحق﴾ أي: بالغرض الصحيح[2] الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته الا ترى إلى قوله: ﴿إنّ في ذلك لآية للمؤمنين﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾[3] ثم قال: ذلك ظنّ الذين كفروا.

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾.

الصلاة تكون لطفًا في ترك المعاصي فكأنها ناهية عنها.

فإن قُلْتَ: كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته؟ قُلْتُ: الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدّمًا للتوبة النصوح متقيًا لقوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[4] ويصليها خاشعًا بالقلب والجوارح فقد روى عن حاتم كأنّ رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء، ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا[5]، وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه، وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلى أنه ينتهي عن السيآت يومًا ما، فقد روي أنه قيل: لرسول الله ﷺ إنّ فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إنّ صلاته لتردعه» وروى: أنّ فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال: إنّ صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب[6] وعلى كل حال إنّ المراعي للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضًا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول: إنّ زيدًا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يريد وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾[7] وإنما قال: ولذكر الله ليستقلّ بالتعليل كأنه قال: وللصلاة أكبر لأنها ذكر الله أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة التي هي أحسن وهو مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسورة بالأناة كما قال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ﴿إلا الذين ظلموا﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة

(1) ذكره الثعلبي والواحدي في التفسير وابن الجوزي في الموضوعات، 3/43.
(2) قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد رديء.
(3) سورة ص، الآية: 27.
(4) سورة المائدة، الآية: 27.
(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات، فصل في تحسين الصلاة، والإكثار منها، (حديث: 3262).
(6) قال الزيلعي غريب، 3/46.
(7) سورة الجمعة، الآية: 9.

المؤدّين للجزية ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فنبذوا الذمّة، ومنعوا الجزية فإنّ أولئك مجادلتهم بالسيف وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾[1] ولا مجادلة أشدّ من السيف، وقوله: ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم وإن كان حقًّا لم تكذبوهم»[2]، ومثل ذلك الإنزال.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصدّقًا لسائر الكتب السماوية تحقيقًا لقوله: ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾[3] وقيل: وكما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ هم: عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدّموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾.

وأنت أميّ ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إذًا﴾ لو كان شيء من ذلك أي: من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو ﴿لارتاب﴾ مشركوا مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

فإن قُلْتَ: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمّيًا وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضًا على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب! قُلْتُ: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أميّ بعيد من الريب فكأنه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمّيًا لارتابوا أشدّ الريب، فحين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم وشيء آخر وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به لكونهم مصدّقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزلين ليس بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أميّ ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أميّ.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: ﴿بيمينك﴾؟ قُلْتُ: ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبًا ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشدّ لإثباتك أنه تولى كتبته.

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾.

فكذلك النفي ﴿بل﴾ القرآن. ﴿آيات بينات في صدور﴾ العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظًا في الصدور يتلوه أكثر الأمّة ظاهرًا بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف ومنه ما جاء في صفة هذه الأمّة صدورهم أناجيلهم[4] ﴿وما يجحد﴾ بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾.

قرئ آية وآيات أرادوا هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل أيتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول أنزل عليّ آية كذا دون آية كذا مع علمي أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾.

﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في كل مكان دون مكان، إنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمه عظيمة لا تشكر، وتنكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل: ﴿أولم يكفهم﴾ يعني: اليهود أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك وقيل: إنّ ناسًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتف قد كتبوا فيها بعض ما

---

(1) سورة التوبة، الآية: 29.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (حديث: 6257)، أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في رواية حديث أهل الكتاب، (الحديث: 3644)، وأحمد في المسند 4/136. وأخرجه= = البخاري في كتاب التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها، (الحديث: 7542).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(4) الطبراني في معجمه.

يقول: اليهود فلما أن نظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم»[1] فنزلت والوجه ما نكرناه.

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا﴾ اني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب **﴿يعلم ما في السمٰوات والأرض﴾**، فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم **﴿والذين آمنوا بالباطل﴾** منكم وهو ما تعبدون من دون الله **﴿وكفروا بالله﴾** وآياته **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[2] كقول حسان، فشر كما لخير كما الفداء، وروي أنّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾.

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيبًا والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء كما قال: أصحاب الأيكة فأسقط علينا كسفًا من السماء **﴿ولولا أجل﴾** قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى **﴿لجاءهم العذاب﴾** عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة لما روي أنّ الله تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة[3] وقيل: يوم بدر وقيل: وقت فنائهم بآجالهم.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿لمحيطة﴾ أي: ستحيط بهم.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿يوم يغشاهم العذاب﴾، أو هي محيطة بهم في الدنيا لأنّ المعاصي التي توجبها محيطة بهم أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم ويوم يغشاهم على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت و**﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾[4] **﴿ونقول﴾** قرئ بالنون والياء **﴿ما كنتم تعملون﴾** أي: جزاءه.

يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾.

معنى الآية أنّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبًا وأصح دينًا وأكثر عبادة وأحسن خشوعًا ولعمري أنّ البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، وقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما درنا وداروا أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت، وأضم للهم المنتشر وأحس على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فللّه الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر وعن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرًا من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد[5] وقيل: هي في المستضعفين بنكة الذين نزل فيهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة **﴿فإياي فاعبدون﴾** في المتكلم نحو إياه ضربته في الغائب وإياك عضتك في المخاطب والتقدير فإياي فاعبدوا فاعبدون.

فإن قُلْتَ: ما معنى الفاء في **﴿فاعبدون﴾** وتقديم المفعول! **قُلْتُ:** الفاء جواب شرط محذوف لأنّ المعنى: إنّ أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد، وإن شسعت أتبعه قوله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق، ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لنبوئنهم﴾ لتنزلنهم **﴿من الجنة﴾** علالي، وقرئ لنثوبنهم من الثواء وهو النزول للإقامة يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحدًا نحو ذهب، وأذهبته والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى

(1) أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في العلم (الحديث: 454).
(2) سورة سبأ، الآية: 24.
(3) قال الزيلعي غريب، 3/49.
(4) سورة الزمر، الآية: 16.
(5) ذكره الثعلبي في التفسير، وتقدم في النساء.

الغرف إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم، وقرأ يحيى ابن وثاب فنعم بزيادة الفاء.

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، لما أمر رسول الله ﷺ: من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت، والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾.

﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله **﴿الله يرزقها وإياكم﴾** أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضًا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في حضنيه ويقال: للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها **﴿وهو السميع﴾** لقولكم نخشى الفقر والضيعة **﴿العليم﴾** بما في ضمائركم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾.

الضمير في **﴿سألتهم﴾** لأهل مكة **﴿فأنى يؤفكون﴾**، فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾.

فإن قُلْتَ: الذي رجع إليه الضمير في قوله **﴿ويقدر له﴾** هو من يشاء فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد! **قُلْتُ:** يحتمل الوجهين جميعًا أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأنّ من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهمًا مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾.

استحمد رسول الله ﷺ على أنه ممن أقرّ بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه ولم يكن إقرارًا عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال: **﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾** ما يقولون: وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد، أو لا يعقلون ما تريد بقولك: الحمد لله ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿هذه﴾ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، يريد ما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة[1] والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوًا كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمي ما فيه حياة حيوانًا قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتر من الحيوان وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة، والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أنّ الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة **﴿لو كانوا يعلمون﴾** فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله:

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿فإذا ركبوا﴾؟ **قُلْتُ:** بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد **﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾** كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا ينكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهًا آخر وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهكم **﴿فلما نجاهم إلى البر﴾** وآمنوا عادوا إلى حال الشرك.

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾.

واللام في **﴿ليكفروا﴾** محتملة أن تكون لام كي وكذلك في **﴿وليتمتعوا﴾** فيمن قرأها بالكسر والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين

(1) قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان والحيوان من ذلك والله أعلم.

بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا انجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التمتع، التلذذ وان تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبان يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ **قُلْتُ:** هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه وقلت: أنت وشأنك، وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال: لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾.

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضًا ويتغاورون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فنكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم وبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذبًا زعمهم إن لله شريكا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾.

وتكذيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لما جاءه﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يضح لهم صدقه أو كذبه ﴿أليس﴾ تقرير لثوائهم في جهنم كقوله: ألستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهامًا ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثوون في جهنم وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا مثل هذه الجراة.

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾.

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فينا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقًا كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[2] وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع المحسنين﴾ لناصرهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الروم مكية

الٓمٓ ﴿١﴾.

القراءة المشهور الكثيرة.

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾.

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيغلبون بفتح الياء والأرض أرض العرب لأنّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾.

والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرنّ نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

(1) سورة فصلت، الآية: 40.
(2) سورة محمد، الآية: 17.
(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/ 50.